كنيسة المسيح؟ هي في الحياة الفاعلة!

(النهار ١٩٨٢)

لم أجده في متاهات الفلسفة ولا في بواطن المجلّدات. وفي مقياسه تعادل الكتبة مع الفريسيين!
ومن الطمأنينة لامست سرابها في مجاهل العقل المجرّد وأبعاد المعرفة. "فالذي يزيد علمًا يزيد حزنًا"، والحزن ليس من الله.
وفي برودة الحجارة وفخامة الأوقاف وبلاغة الألقاب وعلو المراكز والرتب، رأيته مكبّلاً أسيرًا مرذولاً.
وكم من صلبان مرصّعة على صدور، وتيجان برّاقة على رؤوس، وجدتها حملاً ثقيلاً وأكاليل شوك على ظهر ورأس من وشّح السماء بالغيوم.
مع الإنسان الجريح هو. مع الثكالى والموجعين هو. مع الموحودين المرذولين هو. في الخواطر المكسورة والقلوب المسحوقة هو. أنّات المظالم والطغيان والاستعباد وعدم الرأفة يصرخها فمه هو. وهو الذي أمام هذا، أمام كل هذا، يصرخ فينا، في كل واحد منا، أين أنت يا هذا من كل هذا. أين أنت مني يا أيها المتشدّق والمتخايل باسمي عندما أطرق بابك عريانًا، عطشانًا، جائعًا، سجينًا، مرذولاً، معاقًا؟
وإذا كان الله هو التحدّي لقساوة القلوب، ودعوتها لصفاء المشاركة ومسؤولية التآخي، فكنيسة الحقّة هي التي لنا، لكل واحد منا، فسحة رجاء، وتبديق قلق، وإطلالة على غد أحسن، ومسعى دؤوب لعالم أكثر أنسًا، ودفئًا، وقلبًا.
ولما كان المسيح هو الخادم الأول للإنسان، "أتيت لأخدمَ لا لأُخْدَمَ" و "أتيت للمرضى، لا للأصحّاء"، فإن كنائسنا تنتسب إليه فقط بمقدار ما تتمحور حول الإنسان، وبقدر ما هي للإنسان، لكل إنسان إطلاقًا، الخادم الفعلي، المهتم بالجوهر، الساهر الأمين، لا يكلّ ولا يتعب. الكنيسة هي للعناية. وهي تتعادل مع نوعية وجدّية الخدمة التي تلتزم بها.
الخدمة، نعم! الخدمة الفعلية، لا تلك التي تدغدغ وتلامس، مكتفية بالجزئيات وبعض الاجتماعيات. إذ لا تلتحم الكنيسة بالمسيح إلاّ بمقدار ما تعمل لاقتلاع أسباب التخلّف، وإرساء قواعد العدالة، وإطلاق القيم الإنسانية في مراميها البعيدة. وهذا لا يتمّ بالقول وإظهار النوايا الحسنة، بل بالفعل. "لا يدخل ملكوت أبي من قال ربي ربي، بل من فعل مشيئة أبي". والفعل يقتضي الالتزام الكامل، والمطلق، لا بل يفترض النضال، وتحلو له الشهادة العظمى. كنيسة لا تعي مسؤولياتها الحقيقية هذه تجاه الإنسان، أو لا تسير بموجبها حتى الشهادة، أو التي تمتدّ أفقيًا لتلهو بالظرفيات، طامرة الجوهر بالهيكليات والطقوس، هي كنيسة لا يرتاح إليها الله. فهي تنكره، وأكاد أردّد مع "ولهلم رايخ" بأنها تغتاله.

* * *

وإذا كانت الكنيسة هي للحياة، وهي كذلك،
وإذا كانت مؤسساتها المعاصرة تريد أن تقوم من كبوتها وقد طالت،
فإن عليها معرفة الإجابة، وجرأة الالتزام بالجواب، في مواجهة قضايا رئيسية حياتية ملحّة، أورد في ما يلي، باختصار كلي، بعض أهمها:

أولاً: ما هي المواقف الصريحة، والواضحة، التي ستأخذها الكنيسة إزاء الأوضاع الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية التي تعيق مراحل الإنماء وتحول دون تحقيق الحرية المسؤولة في عدالة شاملة؟ وبالتحديد، هل تأخذ الكنيسة خطوات جريئة تفرضها الأصالة الثورية في المسيح، مبتدئة أولاً بنفسها، ومتجهّة بعدها بجزم نحو الأنظمة المتخلّفة المعيقة للإنسان في أميركا اللاتينية وأفريقيا وأقسام كبرى من آسيا وشرقي أوروبا؟

إلى أي حدّ ستتجاوب الكنيسة مع روحية المجمع الفاتيكاني الثاني ويستطيع يوحنا بولس الثاني أن يحملها لتحقّق ما وعد به عندما قال: "نريد أن نمدّ أيدينا ونفتح قلوبنا لجميع الشعوب، خاصة المسحوقين منهم بالتمييز وفقدان العدالة". والمساعدة المطلوبة والمواقف المنتظرة من كنيسة اليوم تدخل في صلب الالتزام بالله، والشهادة به، لا بل هي أساس كيانها وغاية وجودها.

ثانيًا: هل تظلّ الكنيسة تتلقى الصدمات في مجالات الفكر السياسي، والاجتماعي، آخذة دور المدافع، أو اللاحق، متأثّرة بردّات الفعل، أم تسترد المبادرة فتختفي المبادئ والشعارات الممسوخة، إذ عندنا نحن في الأصالة والتراث الحي، جوهر الحلول واتساع الآفاق لكلّ تطلّع ورجاء؟ في خفايا الإنجيل بذور كل حق، وكل خير، وكل تقدّم. المهم أن نقرأ هذا الإنجيل، وأن نقرأه بفهم وحب، وبمسؤولياته نلتزم. فيصبح حقّا لنا، وواجبًا علينا، إعادة صياغة النظام الزمني وكافة نواحي حياتنا على ضوء هذا الحب، وهذا الالتزام.

ثالثًا: إلى أي حدّ سيشارك العلمانيون بتحمّل تبعات الكنيسة، ورسالتها، وإطلالاتها، وكلنا في المسيح شركاء وأخوة، فيصبح مقياس السلطة فيها مدى الخدمة الفعلية والمشاركة الفاعلة في مساعي أبناء الأرض، وينقلب هرمها المتعالي إلى تكاتف عملي، حياتي، فاعل، في الفرح والرجاء، وتوق حثيث إلى الذي رأى في الضعيف ماردًا، وفي المرذول رفيقًا، وفي المجدلية صفاءً وطهرًا؟

وبمقدار ما ستُحمل الكنيسة على أكتافنا نحن أولاد العالم الخطأة، فستأتي معنا إلى عالمنا، تنزل إليه تنظّفه وتجمّله، ويتحرّر المسيح لنا، نحياه بمصداقية، وبالبساطة التي أحبّ نعيشه أفرادًا وجماعات. وربما في الحياة الجماعية للعلمانيين، المشاركة للإنسان الجريح والملتزمة به، شهادةً بالله وسعيًا إليه، بعض الإجابة، الحالية والمستقبلية، لتشجيع الانضمام إلى مسيرة الخدمة الحيّة لله عبر وبرفقة الإنسان الجريح، حتى الشهادة بالذات.

رابعًا: إلى أي حدّ ستتجاوب الكنيسة، خاصة في البلدان المتخلّفة حيث مقتنيات هذا العالم أهم من إنسانه، لتصبح فقيرة ومتشحة بجمال الفقر؟ تَفْقَر في المادة، وقلما تبقي المادة على الأخلاق والزخم، لتغنى في الإنسان، فيتمجّد في بفعلها اتسم الرب. الأوقاف الحقيقية للكنيسة، الغنى الحقيقي الذي يجب أن تسعى إليه، هو ما تبنيه في الإنسان، للإنسان، ومع الإنسان. سفي النهاية، يبقى الإنسان الضمانة الوحيدة. لم أرَ لليوم أضعف من ضمانة الأشياء. والكنيسة التي نريدها، هي كنيسة فاعلة في الحياة الإنسانية الدائمة، لا حامية أوقاف مجمّدة ومشيَّئة في معادلات أرضية بعيدة عن عالم من لم يجد مكانًا يسند إليه رأسه.

خامسًا: ماذا سيكون مدى نجاح الكنيسة في سياق التقارب بين فروعها، عملاً بصرخة السيد: "كونوا واحدًا"؟ هل تتخطّى خلفيات ورواسب هي ليست من المسيح بشيء، بل من إفرازات وغرائز هذه الدنيا، فتعلو فوق انقسامات أملتها دوافع جيو-سياسية، ليتسبّح الله ساعتها في كنيسة جامعة بالفعل، مقدّسة بالفعل، رسولية بالفعل؟ هل ستنزل الكنائس إلى العمق الوجودي في معنى الوحدة، فتقف الواحدة منها باحترام وإجلال أمام تراث وأصالة الأخرى، تغنى من فراداتها، فإذا بحبرية روما تعانق جامعية ورحابة بيزنطية، وهيلينية اليونانية وكونية المارونية وثوريتها المتجدّدة وصفاء القبطية، وإذا بهذه الوحدة الفاعلة تعطي دفعًا لكنائس أوروبا الشرقية المكبوتة، المذلَّة، الرازحة، والمتحسّرة لنجدة أخوة لها في المسيح وقد فرّقهم الصغائر والترابيات، فتعود الابتسامة إلى وجه المسيح وقد حرّرناه من هذه الصغائر، وهذه الترابيات؟

سادسًا: عشية التئام المجمع الفاتيكاني الثاني، أعطاه يوحنا الثالث والعشرون مداه الرحب ربطه بكونية المسيح ورسالته الشاملة لكل إنسان، إذ قال: أن المجمع سيهتم بالجنس البشري قاطبة، وزاد "فويتوا"، خليفته فيما بعد، أن

المجمع سيلهم بالحب الذي هو أكبر أمل للجنس البشري. فهل ستتمكّن الكنيسة أن تصعد إلى روح السيد الكبرى، الحاضنة على صدرها كل واحد من عائلة الإنسان الكبرى؟ هل ستترك الكنيسة خنادق المناظرة وتأتي إلى الحوار القائم على الانفتاح والمفعم بالحب، لخدمة الإنسان الواحد وتسبيح الله الأوحد؟ فدور الكنيسة، كما يراه يوحنا بولس الثاني، عن حق، لا يقوم على التباهي بسلطتها أمام غير المؤمنين. أننا وإخواننا وسائر أبناء البشر ملتزمون بالبحث، يقول. فإذا كان الغير-المؤمن هو أخ لنا، وعلينا أن نبحث سويًا عن مجالات التوافق والتآخي، وما أكثرها، فكم تصبح هذه الدعوة أكثر بداهة وإلحاحًا للحوار الحميم، الحثيث بين كنيسة الحياة التي نصبو إليها والرسالات الموحّدة الأخرى في الحضارة المنفتحة والملتزمة بالإنسان؟ فلنا سويًا أكثر من لقاء وجودي في عمق الجوهر. وتعدّد الطرق للوصول إليه وجب أن يكون مصدر غنى، ودلالات مفعمة عن نفس الحقيقة. فكل الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن، كما أتى في الجامعة. الباب الواحد لا يؤدي إلى كامل الحقيقة. توضح الحقيقة الواحدة وتسطع شفافيتها بقدر مل تكثر المرايا التي تعكسها. وقد عبّر "فويتوا" الشاعر عن جمال هذه التعدّدية في انعكاسات الحقيقة الواحدة إذ قال: تلك الأفكار التي تومض من عينيك هي غير تلك التي تومض في عيني مع إن جوهرها واحد.

ولكي يتعدّى الحوار المسيحي-الإسلامي نطاق المجاملات، على المسيحية، إطلاقًا، أن تعيش عمق الرسالة لتكون رسولة، وبالأخص حيث لعبة العدد ليس في مصلحتها، كما هو في وضعها في العالم العربي. وفي عمق الحوار، ومعالجة الجوهر، وصدق الدعوة، وصدق الاستجابة لها، نأتي سويًا والإسلام إلى الإنسان المعاصر، الغارق في التخلّف أو الغارق في التخمة، لا فرق، إذ في الحالتين نراه مضطربًا، قلقًا، خاسرًا. فقوى التخلّف ترهقه. والمكننة الآيلة إلى التخمة تزهقه. في حوار الديانتين الموحدتين نعطيه الطمأنينة ونسعى به إلى عالم أكثر أنسنة، أي أكثر حرية، وعدالة، وشخصانية، وفرحًا، فنقوى على التيارات المادية التي تستعمله وقودًا لوعود من سراب.

* * *

لقد ذكرت بعض الممرات الصعبة التي على كنائسنا أن تجتازها لتثبت في الحياة. وهي تحدّيات تُطْرح على شاكلة إنذار. ومواجهة هذا الإنذار ليست هينة. وان تكون بالوسائل المألوفة السهلة.

وبمقدار ما ستواجه كنائسنا التحديات المطروحة، وتقوى عليها، سيكبر في قلبنا الرجاء من مؤسسات نريدها حية، نابضة، ونريدها معبرًا صادقًا إلى قلب الله، وإلى إشعاعاته الدافئة.

كنائسنا اليوم على مفترق طرق: تكون، أو لا تكون! والكينونة تتضح وتقوى بقدر ما في شهاداتها بالمسيح من صدق، ومن عمق، ومن التزام مطلق!